رؤيةٌ في علاقة العربية الفصحى بوسائل الإعلام الحديثة

أ. د. إبراهيم عبدالرحمن المطوع

الملخص:

ينظر البعض أحيانا إلى أن الآخرين هم سبب مشاكله وإخفاقاته، فيُسقط عليهم انتكاساته، وعثراته، وهو أسلوب نفسي إسقاطي، يخفّف عن الإنسان بعضاً من همومه، لأنه أسهل كثيرا من مواجهة المشكلة أو مواجهة النفس، وهو أسلوب علاجي مؤقت لايؤدي إلى معالجة أو حل .

ومن ذلك: قضية هؤلاء مع (اللغة العربية)، فمرة يُسقطون سبب أزمة الفصحى إلى: انتشار العامية والعاميين والشعر العامي، ومرة أخرى يُسقطونها على: وسائل الإعلام والصحافة ووسائل التواصل الحديثة .. ومرة ثالثة يُسقطونها على ذائقة الجمهور وضحالة ثقافتهم .. الخ، وقد أخذ القائلون بهذا الفرصة الكاملة لإعلان ذلك، ومن اليسير العثور على نماذج كثيرة من أقوالهم، حتى إننا أصبحنا . بسبب كثرة القول بالتأثير السلبي لوسائل الإعلام على الفصحى . ربما (نستبعد) وجود آثار إيجابية للإعلام الحديث على الفصحى ..

فهذا البحث سينظر في الجانب الآخر: وهو الجانب الإيجابي لوسائل الإعلام على اللغة العربية الفصحى وانتشارها وخدمتها والتبشير بها، وهو ماسيسعى البحث إلى تأمله والنظر فيه ..

منذ أن ظهرت وسائل الإعلام في العصر الحديث توجّس علماء اللغة منها خيفةً، كما توجّسوا . من قبل . من الاحتكاك بالأجناس البشرية غير العربية، واتهموهم بإفساد اللسان العربي، فحين ظهرت الصحافة قبل نحو ١٠٠ عام في البلاد العربية، وكان مؤسسوها من الأدباء . وليسوا من اللغويين . واتخذت لها مستوى كتابيا جديدا، يخاطب العامة . وهم جمهور القراء . ويتقرّب إليهم، أطلق اللغويون التحذيرات من هذا (المستوى /اللغة) الجديدة، المتمردة على كثير من الأعراف اللغوية، ثم حين ظهرت الإذاعات، ثم بعد ذلك التلفاز، وجد من اللغويين الموقف ذاته.

فنشأت بسبب كل ماتقدّم: أزمة يشوبها عدم ثقة بين الفصحى ووسائل الإعلام، أو (علاقة متأزمة بين الفصحى والإعلام)، فالفصحاء يرون أن وسائل الإعلام فتحت أبوابها للعاميين وللهجات العامية في برامجها وموادها، وأن العاملين فيها غير مؤهلين . لغويا . ويلحنون ..

والإعلام يرى أن الفصحاء لايعون تماما متطلبات الحرفة والمهنية الإعلامية، وأنهم يسعون إلى تقييد الإعلام بقواعدهم واشتراطاتهم القاسية، وظلّت الأزمة قائمة حتى الآن.

والبحث سيحاول اقتراح حل لهذه الأزمة، وبيان أن الإعلام كغيره من المستجدات في حياتنا المعاصرة، كالتعليم والمستشفيات ووسائل المواصلات والاتصالات، لن تحلّ مشاكلنا بمجرد ظهورها، بل هي وسائل ومخترعات ظهرت لأغراض محدودة، بل قد تكون وبالاً على المتعاملين معها كالحوادث المرورية التي نشأت عن ظهور السيارات، وكارتفاع نسبة أصوات التشهير والتنابز بين الأفراد والجماعات عند ظهور وسائل التواصل الحديثة، وكارتفاع نسبة المعاكسات التي ظهرت مع ظهور الهواتف .

إن رمي التهمة على ذائقة الجمهور،وأنهم لايميلون إلى الفصحى ليست منطقية، فالجمهور . وإن كان عاميا . فهو متذوق للجميل من الفصيح، كما كنا نتابع ونستمتع للمسلسلات العربية الفصيحة على يد أبطالها من مثل: محمود سعيد، ورشيد علامة، وللأفلام العالمية من مثل: فيلم عمر المختار وفيلم الرسالة، وكلها فصيحة، وكذلك برنامج أمير الشعراء .

وفي حين يلوم البعض الإعلام لأنه أتاح الفرصة في بعض صفحاته أو بعض ساعات بثّه للعامية، بينما أغلب ساعات بثّه تتم بالفصحى، أو على الأقل الفصحى

المخففّة، في حين أن كل الحياة العامة والتعاملات اليومية تتم بالعامية، فالمشكلة لم تأت من الإعلام، ولكن الإعلام ظهر ووجد هذه الحقيقة قائمة، وهي أن لغة الحياة اليومية هي العامية ..

فطوال السنوات الماضية ـ قبل ظهور الإعلام ـ لم ينجح الفصحاء في إقناع الناس لتكون الفصحى هي لغتهم اليومية، فالمشكلة إذن ليست بسبب ظهور الإعلام .

الاحتجاج بالأثر السلبي للإعلام:

صدرت أقوالٌ من المشتغلين باللغة العربية تؤكد على الأثر السلبي للإعلام على الفصحى، وربما عدّها بعضهم (مكرا) و(مؤامرة)، كما أشار إلى ذلك د / إبراهيم أبوعباة، بقوله ((بعد أن جرّب الأعداء الوسيلتين السابقتين الدعوة إلى العامية وإحياء اللهجات وهجر الفصحى، والكتابة بالحرف اللاتيني بدل الحرف العربي ورأوا أن تأثيرهما محدود، فكروا في وسيلة ثالثة وهي اتخاذ لغة وسطى، وهي (لغة الصحافة) دون الفصحى وفوق العامية، وهي محاولة ماكرة هدفها فصل اللغة العربية الفصحى عن لغة الكتابة والتحدث، تكون خطوة أولى تمهّد للخطوة التالية، وهي استخدام العامية، فأرادوا التدرج في ذلك، وقد حمل لواء هذه الدعوة جماعة منهم: فريد أبو حديد، وأمين الخولي، وتوفيق الحكيم)) (١)، وكما يقول د / جابر قميحة رحمه الله (إن وسائل الإعلام لها أشد الأثر في رفع مستوى اللغة العربية، أو تخريبها والإساءة إليها) (٢)، وكما يقول د / قاسم السامرائي في خطاب موجّه إلى الدكتور عبد الله الفيفي: ((العزيز الدكتور ابن فيفاء الغنَّاء .. سلام الله عليك.. اللغة الواضحة ضيّعتها الفضائيّات أوّلاً، وضيّعها المشتغلون فيها، وضيّعها من يكتب أو يعلّق في المواقع المتناقضة المختلفة، فلا لغة ولا نحو ولا تعبير؛ لأن ظلام التفكير، وافتقار الوضوح، وقلّة المخزون، تسيطر على كلّ هؤلاء. ومِن ثَمَّ فإن حربًا شعواء تقوم ضِدّ هذه اللغة، وضِدّ أهلها، في الإعلام بصنوفه المتناقضة والمتباينة.. فسلام عليك وعلى حرصك القويم على لغتنا الجميلة.)) (٣)

تعليق:

إن إطلاق صفة (الأعداء) على الفريق المخالف، وقيام (حرب شعواء) على اللغة، هو أول مؤشر على الإحساس الهزيمة، أي أنك تصور نفسك أمام طرف لاقِبل لك به، ثم قطعتَ كافة وسائل الاتصال والتواصل معه، في حين أن من المناسب أن تجعل بينك وبينه (حبلا) بل (شعرة) من التفاهم والتقارب .

ثم إن من وحي كلام الأساتذة، نجد الاعتراف بقوة تأثير الإعلام وانتشاره وسيطرته، ونجد في كلام د/ جابر قميحة الاعتراف بالأثر الإيجابي للإعلام على اللغة العربية، ورفع مستواها، فلماذا لا نُثمّن للإعلام دوره الإيجابي، وحسناته على اللغة العربية ـ ولو كانت محدودة ـ ثم نتغاضى عن هفواته، التي كان مبعثها: سعيه وراء مصالحه الخاصة، وأهدافه، فالإعلام لم يُعلن نفسه منقذا أو حارسا للعربية، أو مدرسة لتعليم الفصحى، وإنما الإعلام (مؤسسة تجارية اقتصادية) يبحث عن الربح المادي أولا، والسعي وراء استقطاب عدد أكبر من العملاء والمشاهدين، ثم البحث عما يرضيهم ويجذبهم نحوه، ثم قد تتفق أهداف الإعلام مع أهداف اللغويين والتربويين ومعلمي اللغة، وقد تختلف معهم، لأن لكل منهما حساباته الخاصة .

وربما كان من أسباب هذه الحملة الشرسة على الصحافة من الدكتور أبوعباة وزملائه هو أن الصحافة ـ وهي من أقدم وسائل الإعلام ـ كانت هي النافذة التي عُرضت من خلالها الدعوات والآراء نحو اللغة العربية وتطويرها وتجديدها،فتوجّه لوم المناوئين لهذا الاتجاه إلى الوسيلة التي نقلت هذه الأفكار، كما يلوم أهل القتيل السيارةَ التي نقلت القاتل إلى بيت القتيل، وكما قيل (ناقل الكفر ليس بكافر)، أو كمن يلقي باللائمة على السيارة التي نجم عن ظهورها انتشار السُمنة ..

واقع الفصحى في الإعلام المعاصر:

o في الصحافة

منذ أن ظهرت الصحف في البلاد العربية وهي تتخذ من الفصحى أسلوبا للكتابة فيها، ولم يُعرف عن صحيفة أنها حررت صفحاتها كاملة بالعامية، وإنما أفسحت فيما بعد للشعر العامي (النبطي) صفحة أو صفحتين، مع التزام محرري هذه الصفحات بالفصحى في الكتابة النثرية.

وقد تأسست أكثر الصحف في البلاد العربية، على أيدي (أدباء) عُرفوا بحرفة (الأدب) قبل أن يُعرفوا بحرفة (الصحافة)، فقد ظهرت لهم قصائد ودواوين شعرية ومقالات، وقصص

بالفصحى، ثم رأوا ماتحققه الصحافة من انتشار لأدبهم وأعمالهم، فأقدم عدد منهم على المغامرة في إصدار الصحف والمجلات من أمثال: عبدالفتاح أبومدين، وأحمد عبدالغفور عطار، وعلي وعثمان حافظ، وعبدالقدوس الأنصاري، وعبد الله بن خميس، وحمد الجاسر، وسعد البواردي، وعبدالكريم الجهيمان وغيرهم .

وكانت الصبغة العامة لأكثر الصحف والمجلات هي الصبغة الأدبية، وغلبة المواد الأدبية على غيرها من المواد، وبالفعل فقد حقّقت الصحافة لهؤلاء الأدباء الانتشار المنشود، والتفاعل مع إنتاجاتهم في مختلف المناطق والمدن والقرى، وافتتاح مكاتب للجريدة في عدد من النواحي، وتعيين مراسل أو مندوب لها، ثم حرص القراء على الاطلاع على أعداد المجلة أو الجريدة، وانتظار وصولها، ثم التناوب على قراءتها، نظراً لما تمتعت به الصحف من أسلوب ومستوى جديد من الكتابة، وهو مستوى الكتابة الأدبية، بما فيها من رشاقة ووضوح، وجمال تصوير، ومخاطبة للعواطف .

وقد عُرف عن هؤلاء الأدباء الأعلام تمكّنهم اللغوي، وثقافتهم اللغوية العالية، ورسوخ أقدامهم فيها، وكثيرا ما كانوا يرفضون نشر مادة أو مقال ما لأحد القراء بسبب ضعف لغته وأسلوبه .. ولو نظرنا في زاوية بريد القراء في هذه الصحف لعثرنا على أمثلة كثيرة من هذا، كذلك اهتموا بوجود مصحح ومدقق لغوي متفرغ في الجريدة ..

لذا فقد أشار وأشاد بأثر الصحافة في الأدب عدد من الأدباء والمفكرين، من أمثال: عمر الدسوقي حيث قال ((هذه النهضة الصحفية خلصت اللغة من أسرها القديم، وأوضارها التي ورثتها من عصور الضعف، وخاضت في موضوعات شتى، وسلس الأسلوب، واحتذى الصحفيون أسلوب ابن خلدون في مقدمته، ذلك الأسلوب المرسل السهل، وإذا وازنا بين أسلوب النثر الصحفي في هذا العهد الذي نتحدث عنه، وأسلوب الكتابة في العصر السابق، وجدنا البون شاسعا ..) (٤)

ومثل قول الدكتور شوقي ضيف: ((وأثّرت الصحافة في أدبنا أثرا لايقل عن هذا الأثر أهمية ... فقد كنا نستخدم أسلوبا مسجعا معقدا بعقد البديع، وهو أسلوب كان يمكن أن يقبل في العصور السابقة، حين كان الأدب يخاطب بيئة خاصة وهي البيئة الارستقراطية، أما اليوم فإن الصحف لاتخاطب بيئة بعينها ولاطبقات بعينها وإنما تخاطب جماهير الشعب، التي لاتعرف التعقيد بل التي تَكَلَفُ بالبساطة والسهولة ..

واضطر ذلك الكُتّاب إلى أن يخلعوا عن أدبهم الثياب القديمة البراقة ويعمدوا إلى ثياب أخرى طبيعية هي ثياب الأسلوب المرسل، حتى يفهم عنهم الجمهور مايكتبون دون عناء أو مشقة، ومن الحق أن هذا الاتجاه أتاح لأدبنا مرونة واسعة، فقد أخذ الكُتاب يعبّرون أحرارا عما في أنفسهم، غير متقيدين بسجع ولابلون من ألوان البديع ..... ثم أصبح هذا الأدب في جملته اجتماعيا، لا يخاطب الأفراد ولايُعنى بهم كما كان الشأن في القديم، وإنما يخاطب الجماهير ويُعنى بها وبمشاعرها وأحاسيسها، لم يعد الأدباء يخاطبون بأدبهم ملوكاً وأمراء يتملّقونهم ويرضونهم بما يكتبون وينظمون، بل أصبحوا يخاطبون الجماهير ويحاولون أن يرضوها، وأن ينالوا عطفها، فهي التي تمنحهم رزقها عن طريق ماتشتري من صحفهم أو كتبهم، وردّ ذلك إلى أدبائنا حرياتهم ..... وعلى هذا النحو أصبح الشعب - الذي لم يكن يحفل به أدباؤنا من قبل، ولم يكونوا يُعنون به - موضعَ احتفالهم وعنايتهم، واتسع هذا الاحتفال واتسعت تلك العناية في النثر، فأصبح شعبياً خالصاً أو كاد ..... وجارت عليه هذه الشعبية بعض الجور، فإن طائفة من الأدباء أسرفوا في تبسيط أساليبهم إلى درجة الابتذال، حتى يُعجبوا الذوق المتواضع في الشعب وينال استحسانه، وقد يكون من أسباب ذلك السرعةُ في إنتاجهم، وهي سرعة يقتضيها عملهم، إذ يُلزمون بكتابة مقال أحياناً بعد ساعات،أو بعد لحظات، فلا يجوّدون معانيهم ولاأساليبهم، ولايحققون ما ينبغي من جمال وروعة فنية، ومع ذلك لاتزال عندنا طبقة من أدبائنا الصحفيين تُعنى بأساليبها وتحاول جاهدة أن تلائم بين ضرورات الصحافة ومايتطلّبه الإنتاج الأدبي فيها من سرعة، وبين الذوق الأدبي الرفيع، فهي لاتدنو إلى الطبقة الدنيا في الجمهور، بل تحاول أن ترتفع بها عن طريق معانيها الغزيرة وأساليبها الرصينة)) (٥) .

ومن الآثار الإيجابية للصحافة أنها خلّصت المقال من الصبغة الخطابية والصبغة العلمية التقريرية إلى الصبغة الأدبية الذاتية، وجعلت منه فناً أدبياً جديداً، ثم حرص كل أديب من الأدباء ((على أن يكون لكل واحد منهم أسلوب خاص يتميز به، فبينما تميز أسلوب عبد القدوس الأنصاري بالجزالة والفصاحة

والسلامة من الأخطاء اللغوية، تميز أسلوب العواد بالجمع بين الفصاحة والسخرية، التي تبلغ الحدّة في كثير من الأحيان، في الوقت الذي تميز فيه أسلوب حمزة شحاتة بسخرية مُحبّبة، أقرب إلى التصوير الكاريكاتوري، والظاهرة التي نلحظها أن هذا الجيل الأول من الأدباء كان يكتب المقالة بأسلوب أدبي بكل مايحمله ذلك الأسلوب من إيحاء وشاعرية، وكان يحتفي بأسلوبه احتفاء كبيرا، وما أن نتقدّم إلى الجرائد والمجلات الأدبية في الفترة التي أعقبت هذا الجيل حتى نلاحظ أن كُتّاب المقالات لم يحتفوا بأساليبهم على نحو ما رأينا عند جيل الأدباء الأول، وإن كانت أساليبهم تميزت بالسهولة، التي تكاد تكون وسطاً بين اللغة التراثية، ولغة الحديث العادي، بل قد تسلّلت إلى أساليب الكُتّاب وخاصة في عصر المؤسسات تعبيرات عصرية)) (٦).

كما ظهر اهتمام الصحافة بالسلامة اللغوية وتتبّع الأخطاء التي تقع من بعض الكُتّاب، كالأخطاء التي تقع في مسائل: التعدي واللزوم،والخطأ في جموع القلة وجموع الكثرة،ونشر هذه المقالات في الصحف والمجلات (٧) .

o في الإذاعة التلفاز:

كانت الفصحى ولاتزال هي اللغة المستخدمة في إعداد معظم البرامج ونشرات الأخبار والمواد الإذاعية والتلفازية في الوطن العربي، مع وجود نسبة من المواد الترفيهية باللهجة العامية، من مثل بعض التمثيليات، وبرنامج للشعر العامي .

وقد أحدث التلفاز أثره على الناشئة والأطفال حين تقدم لهم مواد مناسبة باللغة الفصحى، ومن أميزها برنامج: افتح ياسمسم، وبرنامج مدينة القواعد، وبرامج كرتونية مدبلجة باللغة الفصحى، فلمس الآباء والمعلمون تأثر أطفالهم بهذه البرامج من خلال التقاط كلمات وتعبيرات فصيحة، وإن لم يكن الطفل يعي في البداية معناها .

وقد كان وراء إنتاج هذه البرامج جهود وأهداف واحترافية ومهنية عالية،وفريق من الكُتاب والمعدين والمخرجين والفنيين المتمرسين من مختلف التخصصات والاهتمامات .

ومن النماذج والأمثلة القريبة على برامج الفصحى في الإعلام: برنامج أمير الشعراء من قناة إمارة أبوظبي، الذي وُلد بعد ولادة شقيقه برنامج شاعر المليون للشعر العامي، وسط تردّد وتوجّس من فشله وإخفاقه، بسبب الاعتقاد العام بأن الفصحى لاسوق ولانصير لها، وأن عامة الجمهور - الذين يتوجه إليهم الإعلام - لامكان للفصحى في اهتماماتهم، وبعد الموسم الأول ظهرت أرقام وإحصائيات ضخمة تعكس نجاح البرنامج، وكثرة متابعيه الذين قُدّر عدد متابعي الحلقة الأخيرة منه: ٨٠ مليون مشاهد (٨).

وكما سبق فإن للإعلام حساباته الخاصة وأهدافه الاقتصادية، التي لن يتخلى عنها، لأنه أولا وأخيرا هو نشاط وصناعة اقتصادية، لابد لمن يتعامل معها أن يعي هذه المعادلة، وإلا فلن يتحقق له النجاح المنشود، كما نرى من بعض أساتذة اللغة العربية، الذين يظهرون في برامج في الإعلام للحديث عن اللغة العربية وقواعدها، وكأن البرنامج محاضرة أو درس علمي جاف يُلقى على طلاب متخصصين، غير مدركين لأصول المهارة الإعلامية، فتصبح برامجهم عالة على اللغة، وليست خادمة للغة .

أو كأن يظهر على الشاشة دعاة ((لايتقنون اللغة العربية الفصحى، إذ إن كثيرا من نصوص الكتاب والسنة تشوه على ألسنتهم، ويعتريها اللحن والخطأ، وهنا تكمن الطامة الكبرى، لأن المتلقي يُرعيهم سمعه وقلبه، ويتلقف عنهم كل ما ينطقون به، حبا بهم، وتقديرا لهم،دون أن يدري أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ويفسدون النصوص المقدسة جهلا لا قصدا، فمعاذ الله أن نشكك بمقاصدهم، ونطعن في نواياهم، فغاياتهم نبيلة ومقاصدهم لاشك خالصة ___ ولا نزكي على الله أحدا- ولكن الغاية لاتسوّغ الوسيلة، ولا ينبغي لأمثالهم أن يجهلوا لغة القرآن، وأن يستهينوا بالنصوص المقدسة التي هي قوام لغتنا، وصمام أمانها، بل هي التي حفظت لنا أمر هذه اللغة على الرغم من كل الأخطار المحدقة)) (٩).

o في المواقع والمنتديات:

ومع ظهور الشبكة العنكبوتية الالكترونية انتشرت المواقع (١٠)، والمنتديات(١١)، والصحف الالكترونية، وبلغت أعدادها في العالم العربي أرقاماً خيالية، ويتم الإشراف عليها وإدارتها من مؤسس المنتدى، ويحتاج الدخول عليها والكتابة فيها والاستفادة من محتوياتها:التسجيل عن طرق إدارة المنتدى، ويسمى عضوا، أو الزيارة والتصفح لأقسام المنتدى دون إمكانية التعليق، ويسمى زائر .

أما أكثر المنتديات فقد توقف نشاطها

- أو كاد - بسبب ظهور مواقع وشبكات عالمية مفتوحة للاشتراك لأي شخص، وفي أي مكان، دون وجود إدارة أو مراقبة، مثل: التويتر، والواتس أب، والتانجو، الانستجرام، واستمرت بعض المواقع العلمية والأدبية واللغوية الرصينة تعمل وبنجاح، مثل: شبكة الفصيح، والألوكة، ورابطة أدباء الشام، وجسد الثقافة .

O في البرامج الحديثة: (التويتر والواتس):

ونظراً لأن هذين البرنامجين أسهل وأسرع استخداما من المواقع والمنتديات فقد زحف نحو استخدامها جماهير عريضة من المستخدمين من جميع الطبقات والفئات من جميع أنحاء العالم، ففي دراسة نشرتها شركة (سيميوكاست) أشارت إلى أن عدد المستخدمين(المغردين) في شبكة(تويتر) في نهاية يونيو٢٠١٢م قد ناهز نصف مليار = ٥٠٠،٠٠٠،٠٠٠مستخدم، مع احتلال اللغة العربية المرتبة السادسة على المستوى العالمي، وقد جاءت الرياض عاشر أكبر مدينة مغرّدة، مع وجود عشرات المؤشرات الأخرى للنمو الكبير للغة العربية في الفضاء الافتراضي(الانترنت)، على الرغم من ضآلة عدد العرب، إذ لايمثّلون أكثر من ٥٪ من إجمال سكان العالم (١٢).

وفي تقرير صادر عن كلية دبي للإدارة الحكومية:في يوليو٢٠١٢م أشار إلى أن أكثر من ٥،٧٥٠،٣٨٦ تغريدة (يومياً) على التويتر باللغة العربية في المنطقة العربية(١٣).

فلو استبعدنا نصف هذه الأرقام لكونها مكتوبة بالعامية أو الانجليزية أو بـ(العربيزي)، أو اللهجات المحلية، فإن الكمية المتبقية تشكّل مادة ضخمة مكتوبة بالعربية الفصحى، تقدّم دليلا ملموساً على حضور الفصحى في أقلام المغردين وذائقتهم، وانتمائهم إليها، واعتزازهم بها.

يذكر أن دراسة متخصصة أكدت أن نسبة انتشار «تويتر» بين مستخدمي الإنترنت في السعودية تعتبر الأعلى في العالم، إذ تبلغ ٤٠ في المئة، مع معدل نمو سنوي يصل إلى ٤٥ في المئة، مشيرة إلى أن السعوديين ومن يقيم على أرضهم يغردون ١٥٠ مليون مرة شهرياً.

وأوضحت الدراسة التي أجرتها شركة «واي تودي» المتخصصة بالتسويق الإلكتروني أن أربعة من كل ١٠ مستخدمين للإنترنت في السعودية يملكون حساباً في «تويتر»، لافتة إلى أن عدد مستخدمي هذا الموقع في السعودية بلغ نحو ٧ ملايين. (١٤) .

فبناء على الإحصائية السابقة فإنه في اليوم الواحد تنطلق خمسة ملايين تغريدة في المملكة، فإذا استبعدنا ٦٠٪ منها: إما لأنها تغريدة مُعادّ تغريدها، وإما لكونها عامية، أومن اللغة المزدوجة (العربيزي)، أو مكتوبة باللغة الانجليزية أو غيرها من اللغات، وأبقينا ٤٠٪ أي مايقدر بـ ٢ مليون تغريدة، وكان معدل حروف التغريدة الواحدة ٧٠ حرفاً،أي مامجموعه: ١٤٠،٠٠٠،٠٠٠ حرفاً ثم قدّرنا متوسط حروف الكلمات بـ ٥ حروف = ٢٨مليون كلمة في اليوم، أي مايقارب مليون صفحة في اليوم .

فيعني هذا أن هناك نمواً لغويا هائلا يتم تداوله بين أفراد الجمهور العام باللغة العربية الفصحى، وليس الجمهور النخبوي .

كما أصبح لدى عدد من المغردين - خاصة من الشباب - الثقة بالنفس لممارسة الكتابة والتعبير عن الخواطر بوسيلة ميسّرة، يمتلكها بين يديه،دون وسيط أو رقيب، ويجد التفاعل السريع المباشر مع مخاطبيه، فما أن يكتب نصّه أو خاطرته حتى تنهال عليه - بعد دقائق معدودة - الردود و التعليقات .

- أين المشكلة ؟؟

أرى أن الأزمة التي تمرّ بها اللغة الفصحى هي صورة (زاوية) مُصغّرة من الأزمة التي تعاني منها المجتمعات العربية خصوصا، والمجتمعات النامية عموما، أي (أزمة ثقافية تربوية)، و(أزمة تفكير)، نتيجة الضعف الذي تمرّ به الأمة العربية، سياسيا واقتصاديا وثقافيا، ومن المنتظر أن يصل هذا الضعف إلى اللغة، فانتشار الانجليزية وسيطرتها على العالم، وتحولها إلى (لغة عالمية) كان بسبب قوة الدول التي تتحدث بها، وحين كانت الأمة قوية كانت اللغة العربية منتشرة وقوية .

فما حدث ويحدث في العالم من حولنا هو حركة طبيعية ديناميكية، تمر بها المجتمعات البشرية بعاداتها وتقاليدها وأعرافها و(لغاتها)، يجب أن تتهيأ له، وتتوقّع حدوثه، وتتفاعل معه، وتستثمره في صالحها .

وقد ظهرت مؤشرات هذه الأزمة الثقافية في صور منها:

O إطلاق الأحكام التعميمية الجاهزة والأفكار المُعلّبة من مثل: أن الإعلام

والصحافة والعامية هي سبب أزمة اللغة، وأن كل محاولة للتجديد والتطوير هي شكل من أشكال الهدم والتغريب والتمرد وليس البناء .

- الإيمان بوجود مؤامرة وتآمر خارجي على المعطيات الاقتصادية والعلمية والثقافية للدولة .
- عدم الثقة بالآخرين والتوجس من الاحتكاك والتعاون معهم، ويصل هذا التوجس إلى التوجس من بعضنا البعض،وعدم الثقة حتى بأبنائنا الذين هم نتاج تربيتنا، وتحت نظرنا، وكل هذا يصور حتى عدم الثقة بأنفسنا..
- عدم الاعتراف بالأخطاء، ومن ثم التراجع عنها، إلا بعد فوات الأوان وضياع كثير من الفرص، وضياع الكثير من الجهود والطاقات .

ثم وجد بعض المعنيُّين باللغة أن أسهل الطرق هو الزعم بوجود عوامل خارجية رأوا أنها السبب فيما حدث للغة العربية ..

وقد ظهرت صور من آثار هذه الأزمة على تعاطي (التعليم) و(الإعلام) مع اللغة الفصحى:

١- في طرائق ومناهج تعليم اللغة القائمة على (القواعد) دون الممارسة من خلال: الكتابة والتعبير + الإلقاء والتحدث + الاستماع، فهذه الطريقة هي كمن يضع العربة أمام الحصان، والأصل أن يكون العكس: البدء بالممارسة والكتابة والاستماع ثم التعريج على القاعدة ..

٢- الإصابات البالغة التي أصابت الفصحى في التعليم العام والتعليم الجامعي، وفي كليات اللغة العربية تحديدا، إذ يتخرج الطالب منها، وهو لايُحسن التحرير والكتابة، ولايفقه من قواعد اللغة إلا القليل بعد أن استمع في الجامعة إلى مايزيد على ٣٠٠محاضرة في مقررات النحو والصرف، فلا عتب على الإعلام ووسائله إذا كان التعليم قد فشل في النهوض بتعليم اللغة الفصحى وانتشارها، (وقد لا يسوغ لنا العتب على لغة الإعلام، وقد لحقت الإصابات البالغة بلغة التعليم، معقل العربية وحصنها المنيع، حيث بدأ من عندها الخلل والإصابات البالغة للغة، وأصبح حال اللغة في مجال التعليم،كما يصورها أحد الحُمّس الذي قفز إلى المحراب واعظًا، بدون مؤهل، وقال: "ظهر الفساد في البرُّ والبحرُ "، فرد أحد الحاضرين: "وفي المحراب "، لقد أصيبت الفصحى في محرابها، وأدى ذلك إلى انعزالها بشكل طبيعي، فأصبحت دروس العربية تدرس بالعامية ..... حتى إن الكثير من أصحاب الشهادات العالية أو العليا، من المتخصصين بالأدب العربي، لا يستطيع أن يقيم لسانه ولا قلمه بجملة صحيحة، ولا بد من الاعتراف أن من أسباب الإصابة الذي سمح بامتداد العامية والوصول إلى حالة الانشطار الثقافي، الذي نعاني منه بسبب الانشطار اللغوي، تحوّل الوسائل التي وضعت لحماية العربية والمحافظة عليها إلى غايات بحد ذاتها، فكثيرًا ما تتوقف عندها الجهود، دون النظر في دراسة الأحوال وتطوير مواصفات الخطاب وطرائق التعليم بحسب ذلك الحال.. حتى تلك الوسائل لم تتطور دراساتها وأدوات توصيلها والتدريب عليها، وإنما بقيت على حالها، على الرغم من تطور التقنيات التربوية والتعليمية، فكادت تتحول إلى معوق وحاجز يحول دون الإقبال على اللغة، تعلمًا وتعليمًا وتخصصًا، حتى كادت بعض هذه الوسائل أن تنقرض من الساحة التعليمية والتربوية، وتنحسر في بعض الزوايا المعزولة(١٥) .

الإعلام (مدرسة لغوية):

١- لأبناء العربية:

ونظراً لغياب الفصحى من ألسنة الناس في حياتنا اليومية العامة، فإن الطالب العربي لايجد استخداما للفصحى في الحياة العامة عن طريق (الاستماع)، كما في اللغات الأجنبية، والاستماع من أسرع وأيسر وسائل تعليم اللغة واكتسابها، ومن أكثرها تأثيرا، كما نرى في اكتساب الطفل للغة عن طريق الاستماع، فالأذن هي أول جهاز يستقبل اللغة من المحيطين بالطفل، فيأتي الإعلام كأداة من أدوات اكتساب اللغة الفصيحة عن طريق الاكتساب، كما نرى من حفظ كبار السن الأميّن أو الأطفال قبل سن المدرسة سورا ومقاطع من القرآن حفظا متقنا مع سلامة لغوية واضحة، دون علم بتفاصيل القواعد اللغوية، كل هذا بواسطة أسلوب الاستماع .

كذلك يحتاج الطالب العربي إلى نصوص مكتوبة بلغة عربية فصحى مناسبة لعصره، ليقرأها ويحتذيها، فكانت مقالات الصحف التي يكتبها أدباء العصر نماذج حية، تجمع الفصحى + العصرية،

وأصبحت فيما بعد نصوصا أدبية فصيحة يتتلمذ عليها الطلاب والناشئة من مثل كتابات المنفلوطي والمازني وأحمد أمين ومصطفى الرافعي وطه حسين .

٢- لمتعلمي اللغة العربية الأجانب:

وهم بحاجة ماسة إلى نصوص فصيحة واستخدامات حية للفصحى، بالاختلاط والمعايشة، وهو ما لايتوافر في حياتنا اليومية، ويكون من المعوقات الرئيسية أمام متعلم اللغة العربية من الأجانب، فتصبح عندئذ البرامج والأحاديث والأخبار والتحليلات في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية دروساً حيةً لهم، وقد مرّ بالناس زمنٌ . ولايزالون . يتتلمذون على إذاعات عبر الأثير من مثل: (إذاعة البي بي سي البريطانية)، التي يمكن أن نعدّها: (مدرسة لغوية)، يستمتع بها المتخصص، ويفهمها العامي غير المتخصص، في معادلة متزنة، لتُثبت أن الفصحى محل ترحيب وتقدير من العوام والخواص، متى ما أدركنا الاحترافية والمهارة الإعلامية .

وأساس المعالجة يقوم على (المنافسة) و (المزاحمة) و(ملء الفراغ)، فإن لم يجد الجمهورُ الجيدَ المشوقَ الممتع المُلبّي للاحتياجات اليومية، فسيأتي من يقوم بالدور، مثل الشعر العامي جاء بديلا ليملأ الفراغ الذي تركه الفصيح، والعامية التي جاءت بديلا لتملأ الفراغ الذي تركته الفصحى ..

دعوة للتفاؤل:

مايدعو إلى التفاؤل والنظر بإيجابية إلى مستقبل الفصحى، هو ظهور جيل جديد من دارسي اللغة العربية والمتخصّصين فيها، يحملون النظرة الواقعية، والوعي بالظروف المحيطة، ورأيت أن أختم هذه المشاركة بتصريح متزن ومتعقّل قرأته . مؤخرا . للدكتور عبد العزيز الحربي في جريدة الرياض:

((توقع رئيس مجمع اللغة العربية بمكة المكرمة الدكتور عبدالعزيز بن علي الحربي أن تنشط دعوات ضد اللغة العربية في ظل الحراك السياسي المعاصر والمتغيرات الجديدة ومع الاهتمام الغربي المتزايد بالعالم العربي والإسلامي؛ لكنه في نفس الوقت قلل من تضرر لغة الضاد من ذلك قائلاً: "إنهم لا يضروا لغة الضاد إلا أذى، وخدشا لشيء من محاسنها وجمالها، وأما القضاء عليها فلن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً" مشيراً إلى أن الطّريقة المثلى لنشر المصطلحات التي تقرها مجامع اللغة عن طريق الإعلام، والتعليم، وأن التقصير في العناية بهذين المسلكين هو السبب الأكبر في انحسار مساحة نشر تلك المصطلحات.

كما كشف الحربي أن المجمع الآن بصدد تكوين مجلس إداري يرأسه معالي الشيخ صالح بن عبدالله بن حميد؛ للإعداد لمؤتمر دولي بمكة، مبيناً أن ثمة تعاوناً بين المجمع مع رابطة اتحاد لغة العرب، والمراكز المتخصصة باللّغة العربية وعلومها.

وحول ما إذا كان المجمع سيقاضي المخالفين الذين ينتهكون قواعد اللغة قال: نحن لا نقاضي، ولا نجبر أحدا على شيء، ومن أهدافنا تحبيب اللّغة وتيسيرها، وحراسة اللّغة والتصدي لمن أراد تشويهها، ومن أنواع التصدي إرشاده وإقناعه، والرّد عليه بالحجة والبرهان.

كما أشار إلى أن السّوق الإعلاني يميل إلى العاميّة في الغالب، مبدئياً وبشكل شخصي أنه لا مانع من استعمال العاميّة في بعض الميادين، لكن الذي أمنعه هو خلط الفصحى بالعاميّة، كما أن الإعلانات لا تلتزم في كثير من مناحيها بالفصحى، وتحتاج إلى أن تعرض على مصحّح لغوي.

وأكد رئيس مجمع اللغة العربية أن العلوم باللّغة العربية هي نوع من الاعتزاز باللّغة العربية. ولفت الحربي الانتباه إلى أن الإعلام محلياً في نشراته وإذاعاته، ولغة جرائده، ملتزم بالفصحى من حيث الجملة، وهناك أخطاء شائعة يقع فيها بعض الإعلاميين والكتّاب، ومن أعمال المجمع التنبيه المباشر وغير المباشر مع تلك الأغلاط لأجل الوصول إلى حالة من الرضا حول استخدامنا لهذه اللغة.)) (١٦)

الهوامش

(١) إبراهيم أبو عباة، لغة القرآن مكانتها والأخطار التي تهدّدها ص ٦١، ط/١٤١٣هـ، دار الوطن للنشر

(٢) جابر قميحة، من كتابه: أثر وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية في اللغة العربية

(٣) رسالة ملحقة مع مقالة للدكتور الفيفي بعنوان: ماالقصيدة ؟ المجلة الثقافية، جريدة الجزيرة، في ١٤٣١/٧/١٢هـ، عدد / ٣١٦

(٤) عمر الدسوقي، الأدب الحديث ص ١٠٠

(٥) شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر ص٣٦و٣٧، دار المعارف القاهرة.

(٦) غازي عوض الله، الصحافة الأدبية في المملكة ص ١١١، جدة: مكتبة مصباح ١٤٠٩هـ

(٧) غازي عوض الله، المصدر نفسه ص ١١٢

(٨) ولاء عبد الله، من الموقع الالكتروني لوكالة: أنباء الشعر

(٩) د. حسان الطيان: أثر وسائل الإعلام في اكتساب ملكة الفصاحة اللغوية: أثر وسائل الإعلام في اكتساب هذه الملكة، مرفوعة في الموقع بتاريخ: ٢٠١١/٠٣/١٢ م

(١٠) صفحة أو صفحات تحتوي معلومات ثابتة ولامجال للحوار أو التعليق فيها، مواقع للشخصيات، ومواقع للمؤسسات والشركات والوزارات

(١١) وهي منتدى يشتمل على صفحات وأقسام مختلفة، مع إمكانية النقاش والتعليق فيها) العامة منها، والخاصة

(١٢) عبدالله البريدي، اللغة هوية ناطقة ص ١٠٨ كتاب المجلة العربية١٩٧، جمادى الأولى١٤٣٤هـ

(١٣) المجلة الثقافية، جريدة الجزيرة من مقال د/ عبدالله الغذامي، تقرير صادر من كلية الإدارة في دبي، يوليو٢٠١٢م

(١٤) جريدة المرصد الالكترونية ٢٠١٤/٣/٣٠م

(١٥) من كتاب: الارتقاء بالعربية في وسائل الإعلام" للأستاذ نور الدين بليبل، في سلسلة "كتاب الأمة"، الذي يصدر عن مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر ص ٧ .

(١٦) جريدة الرياض، عدد / ١٦٧٠٨، في الأحد ١٤٣٥/٥/٢٢هـ